صورةُ الإمام علي (عليه السلام) في الشعر المسيحي

The image of Imam Ali (peace be upon him) in Christian poetry

احمد البديري
Asst. Prof. Dr Ahmed al - Budairi

كلمات مفتاحية: الصورة الشعرية/ الصورة الأدبية/ الخيال/ البطولة / الشعر المسيحي / جورج جرداق

ملخص البحث

سلّطَ هذا البحثُ الموجز الاضواء على مبحث مهم من مباحث الأدب العربي وهو صورة الإمام علي (عليه السلام) في الشعر المسيحي والاستعراض لأهم الشعراء المسيحيين الذين أنشدوا في أمير المؤمنين علي (عليه السلام) والتعرّف على أهم المحاور التي كانت مبعث الهام الشعراء المسيحيين في شخصية الإمام علي (عليه السلام) ، والتركيز على أهم الصفات التي تحلّى بها عليه السلام ومنها البطولة التي لم تكن المحور الستراتيجي في شخصية علي (عليه السلام) وسيرته بالنسبة للشعراء المسيحيين فحسب ، وإنّما يضاف اليها ، الإنسانية والحكمة والعلم والبيان والمقام الإلهي السامي بالإضافة إلى الصفات الأخرى التي كانت جزءا من شخصية الإمام علي (عليه السلام)والعروج على ما انماز به الشعر والشعراء المسيحيون في هذا الجانب وكيف أنهم تفننوا في اختيار المفردات التي تعبّر عن مشاعرهم الجياشة تجاه شخص الإمام والمرور بأهمّ المحطات في حياته الشريفة والله الموفق.

Abstract

This brief research sheds light on an important topic of the study of Arabic literature, namely, the image of Imam Ali (Peace be upon him) in Christian poetry and the review of the most important Christian poets who said poetry in the prince of faithfuls Ali (peace be upon him) and to know about the most important axes that was inspiration the poets in Imam Ali personality (peace be upon him), and to focus on the most important characters in him, including the championship, which was not the strategic axis in the personality of Imam Ali (peace be upon him) and his biography for the Christian poets only, but added to it, humanity and wisdom, science and statement and the divine high sanctuary in addition to The other qualities that were part of the personality of Imam Ali (peace be upon him) and the bride on what the Christian poets and poetry in this aspect and how they mastered the selection of words that express their feelings towards the person of the Imam and pass through the most important stations in his honorable life and God conciliator.

المقدمة

للإمامِ عليٍّ (عليه السلام) في الأدب والفكر المسيحي عموما وفي ميدان الشعر والشعراء المسيحيين مساحة كبيرة جدا من الحب والإعجاب والذي تجسّد بسيل عارم من المشاعر الفياضة التي يكنّها أتباع الديانة المسيحية لهذه الشخصية الإنسانية العظيمة.

وتعددت الصور الشعرية التي أبدعها شعراء المسيحية في وصف الصفات والخصال الكثيرة التي وجدها أولئك الشعراء في مسيرة وسيرة الإمام علي (عليه السلام) والتي ربما لم تتوفر في شخصية أخرى لديهم لتنال من اهتمامهم وأدبهم المكانة والمقام الذي حظي به الإمام في الفكر والأدب المسيحي .

ولعل هذا الدراسة الموجزة تعجز أيضا عن الإحاطة بالتراث المسيحي الأدبي الكامل حول الإمام علي (عليه السلام) إلاّ إنّا استطعنا إعطاء صورة مجملة عن مكانة الإمام ومقدار تلك المكانة الكبيرة من خلال النصوص والشهادات التي توفرت لدينا من المصادر المحدودة جدا التي تطرقت إلى هذا الموضوع والتي من أهمها المنجز التاريخي الكبير للأستاذ راجي أنور هيفا (الإمام علي في الفكر المسيحي) بالإضافة إلى بعض المصادر النادرة الأخرى .

أمّا عن خطة البحث للدراسة فلقد تضمنت مبحثين، وخصص المبحث الأول بتمهيد للدراسة وتسليط الضوء على مفهوم الصورة الشعرية لغة واصطلاحا واستعراض آراء علماء الأدب بهذا المصطلح.

أما المبحث الثاني وهو أصل البحث وموضع التحليل فلقد خصص لبعض الصور التي اختارها شعراء المسيحية من سيرة وشخصية الإمام علي (عليه السلام) والتي بدأت بالبطولة وانتهت بصورة علي إماما ووصياً وذلك من خلال استعراض أهم تلك الصور التي حفلت بها دواوين شعراء المسيحية وابرز الصور التي انطلق من خلالها الشعراء في استلهام أبياتهم وقصائدهم بحق الإمام علي (عليه السلام).

وهكذا كان هذا البحث فرصة لسبر أغوار الأدب المسيحي والتعرف على بعض ما خصصه ذلك الأدب لشخص وصي رسول الإسلام وخليفته الإمام علي (عليه السلام) ولو بهذه الصورة الموجزة والمناسبة.

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على محمد واله الطاهرين

تمهيد

حفل الأدب المسيحي بمساحة كبيرة خصصت من قبل الأدباء والشعراء المسيحيين عموما والشرقيين خصوصا للتغني والتبحّر في فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).

وبلغت تلك المقطوعات النثرية والشعرية حداً ملأ الخافقين وشهدنا في العقود الأخيرة طفرات في تلك السرديات والقصائد لتتحول إلى ملاحم وأسفار وموسوعات خصصت في محاولة الغوص في ثنايا سيرة ومسيرة هذا الإنسان العظيم ولعل أشهر ما كتب في تلك المجموعات هي (ملحمة عيد الغدير) لبولس سلامة ، و(الملحمة العلوية) لعبد المسيح الإنطاكي و(علي صوت العدالة الإنسانية) لجورج جرداق وغيرها .

وفي نطاق النظم الأدبي والفكري في الإمام علي (عليه السلام) من قبل المسيحيين لم يجد الكاتب والأديب راجي عنايت بداً من الإبحار في تلك الأسفار وقراءتها وتوثيقها في كتابه الوثائقي الفكري (الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر) ليتجول في ظلال الإبداع المسيحي ورشاقة الأدب المسيحي في إيقوناتهم الأدبية ذات البيان الساحر وهم يسرحون في رحاب الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)

الإنسان والعالم والحاكم والمقاتل ...الخ .

والعشق المسيحي لشخصية الإمام علي (عليه السلام) لم يكن وليد التاريخ المعاصر وإنما كان له في عصور الإسلام الأولى شعراء عبّروا عن ذلك الحب بمعان سامية ومشاعر صادقة وواعية لمقام هذا الإنسان العظيم فها هو ابن إسحاق الموصلي المسيحي يعبّر عن هذا الترابط الروحي مع الإمام بقوله :

عدي وتيم لا أحاول ذكرهم

بسوء ولكني محبٌ لهاشمِ

وما يعتريني في علي ورهطه

إذا ذكروا في الله لومة لائم

يقولون: ما بال النصارى تحبهم

وأهل النهى من أعراب وعجائم

فقلت لهم : أني لأحسب حبهم

سرى في قلوب الناس حتى البهائم [١]

وهذا يعني أنّ حب علي وأهل بيته قد تجاوز القوميات وحطّم حواجز الأديان، فهم قبلة العربي والأعجمي وهم أيضاً سكان قلوب المؤمنين من النصارى والمسلمين.

وهذا البطريك الأرمني الذي عاش في القرن الثالث الهجري يعرج إلى غدير خم ليذكّر المسلمين بخليفة الرسول الأكرم (صلى الله عليه واله) الشرعي وليبيّن هذه العقيدة بقوله :

أليس بخم قد أقام (محـــــمد)

(عليا) بإحضار الملا في الحواسم

فقال لهم : من كنت مولاه منكم

فمولاكم بعدي (علي بن فاطم)

فقال : لغة: كم ولـــــي وليه

وعاد عاديه على رغم راغم [٢]

الصورة الشعرية : لغة واصطلاحا

الصورة لغة : مادة (ص.و.ر) الصورة في الشكل ، والجمع صور،وقد صوّره فتصوّر ، وتصورت الشيء توهمت صورته ، فتصور لي ، والتصاوير تماثيل [٣].

الصورة اصطلاحا: ويعرفها احمد الجابي: (مشهد أو رسم قوامه الكلمات) [٤].

أمّا احمد الشايب في كتابه أصول النقد الأدبي فيعرّفها على أنّها : (الوسائل التي يحاول الأديب بها نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه وسامعيه هي الصورة الفنية)[٥] .

أمّا الدكتور داود سلوم فيعبّر عن فهمه للصورة الشعرية بقوله : (إنّ امتزاج المعنى والألفاظ والخيال كلها هو الذي يسمّى بالصورة الأدبية ، ومن ترابطها وتلاؤمها والنظر إليها مرة واحدة عند نقد النص يقوم التقدير الأدبي السليم)[٦] .

ونشأت الحاجة إلى الصورة الفنية باعتبارها أداة لها طريقتها الخاصة في عرض المعاني المقترنة بألفاظ ليتفاعل المتلقي للنص الأدبي وهو مرتبط بجزءيه في وقت واحد ، فلا فصل بينهما ولا يتميز أحدهما على الآخر ، فيكتسب حينذاك العمل الأدبي مناخا يشعرك بالتئام اللغة والفكر بإطار موحد ينهض بالنص[٧] .

وترتبط الصورة بالخيال ارتباطا وثيقاً فبواسطة فاعلية الخيال ونشاطه وتنفذ الصورة إلى مخيلة المتلقي فتنطبع فيها بشكل معيّن وهيئة مخصوصة ناقلة أحساس الشاعر تجاه الأشياء وانفعاله بها وتفاعله معها[٨].

وتحتل الصورة موقعا مؤثرا في النص الشعري لما تتركه من أثر ووقع في قلب السامع وربما يكون ثقل الصورة البلاغي والجمالي من أهم العناصر التي تعطي الشعر قيمة فنية وجمالية وبالطبع فإن الصورة

الشعرية لم تكن وليدة الدراسات النقدية الحديثة من حيث أهميتها ووظيفتها في النص الشعري وإنما كانت موجودة في النقد العربي القديم وان كان النقاد القدامى لم ينهضوا بمفهوم الصورة في المجال الاصطلاحي ولم يخرجوا بها عن مدلولها اللغوي ولم يتبلور عندهم بُعدها النقدي الأصيل باستثناء عبد القاهر الجرجاني الذي ابتدع لنا في استعمال الصورة دلالة اصطلاحية جديدة[٩] .

إن دراسة الصورة الشعرية لدى نقاد الشعر العربي لم تكن معدومة وإنّما كانت محدودة بالمكون البلاغي حصراً ولعل ما يؤيد هذا الرأي ويعزّزه هو ما أورده قدامة بن جعفر في حديثه حول الشعر بقوله (معاني بمنزلة المادة الموضوعة ، والشعر فيها كالصورة ، كما يوجد في كل صناعة من أنه لابدّ فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور)[١٠].

صور الإمام علي في الشعر المسيحي

١- البطولة

للبطل والبطولة مكانة خاصة في تاريخ الأمم الإنسانية وربما غدت منزلة البطل في التاريخ العربي على وجه الخصوص منزلة ومرتبة لا تدانيها مرتبة أخرى سوى المقام السامي للصالحين ، وقديما كان البطل في القبيلة وفي عهود الحياة الأولى للأمم ، يعدّ شخصا مقدسا [١١].

بل أنّ الشعوب والأمم كانت تمجّد وتعظم أبطالها العظام بصور ومظاهر شتى ، فالبطل يمكن أن يكون بصورة رسول أو نبي ، ويمكن أن يكون بصورة رسولٍ أو نبي ، ويمكن أن يكون أيضاً متجلياً في صورة كاتب أو شاعر أو قديس ، أو ربما أحياناً في صورة ملك صالح[١٢] .

بل أن جميع الأقوام كانت تربط دائماً وأبدا بين البطولة والقداسة ، فالكائن المقدس ، سواء أكان رجلاً أم إلهاً ، لا بد وان يكون بطلاً ، والبطل بدوره لا بد وأن يكون بطلاً ، والبطل بدوره لا بد وأن يكون كائنا مقدساً[١٣].

أمّا بطولة الإمام علي (عليه السلام) فكانت بطولة من نوع نادر ، لأنها بطولة مقترنة بالعفو والمسامحة والإنسانية والترفع والاستقامة ولذلك كان الرأي أنّ البطولة عند الإمام (عليه السلام) والتي فاقت حد التصورات العقلية لم تكن متناقضة أبداً مع رأفته ورحمته ، بل كانت البطولة عنده تسير جنباً إلى جنب مع الرحمة والشفقة .

وكانت الشجاعة عنده في حالة عناقٍ مع الحنان، وكانت يده التي تحمل السيف (ذو الفقار) الذي ارتوى من دماء أرباب الجبروت والكفر والطاغوت هي نفس اليد التي كانت تمسح على رؤوس الأيتام وتجفّف دموع الفقراء والمساكين .

وعندما يصدح الشاعر المسيحي الكبير عبد المسيح الأنطاكي في ملحمته الشعرية (القصيدة العلوية) ينفذ إلى بطولة الإمام علي (عليه السلام) من أبواب عدة ويصوغها في صور أدبية شتى ، فسيبدأ أولاً بوصف الشجاعة عند علي (عليه السلام) التي تفوق التصورات إلى الحد الذي يؤمن فيه الأنطاكي أن البطولة والشجاعة والإقدام لم يكن لها أن ترتوي أو تزدهر إلاّ بخلق الله تعالى للإمام ليكون سيداً لها :

لم يخلق الله للغارات من رجلٍ
كالمرتضى يكبت الأعداء ينكيها
له الشجاعة تنمى فهو سيدها إلاّ
علـــــي وقد رضيت منه تأبيها
أنسى بها الناس شجعاناً لها سلفت
قدماً ولم يبق من فخر لآتيها [١٤]

أمّا الوزير اللبناني والشاعر الكبير جوزيف الهاشم الذي طالما أنشد في حب علي بن أبي طالب (عليه السلام) فهو عندما يذكر البطولة في شخص الإمام فأنه يتعرّض في أبياته الشعرية مسيرة علي في البطولة والشجاعة والبسالة في ميادين القتال المختلفة والتي شكلت أبرز بل أهم معارك الفتح الإسلامي الذي كان الإمام علي (عليه السلام) فيها رجل الميدان الأول بعد رسول الله (صلى الله عليه واله) .

ويذكر بدرٍا، كيف اقترن الفتح والنصر في تلك الغزوات بسيف علي ويصف لنا حالة الإمام في ميدان القتال وكيف كان تكبير الإمام في المعركة إيذانا وإشارة إلى أنّ ساعديه قد كفّا للحظات عن المبارزة والكفاح ، ويقول الهاشم واصفا تلك المشاهد العلوية في سوح القتال :

أيام بدرٍ ، حُنينٍ ، خَندَقٍ ، أُحدٍ
والبيدُ والصيدُ تحكي عن بطولتهِ
ويوم خيبر في حصن اليه، كم دوى
لذي الفقار صليلٌ قبل صولتهِ
علي (يديه يتمُ الفتح)،كم خفقت
سيوف ربّكَ ظلاً فوق جَّنتهِ
ما كفّ إلاّ مع التكبير ساعُده
وللصلاة انحنت هيفاءُ قامتهِ [١٥]

٢- العدالة والإنسانية

كانت عدالة الإمام علي (عليه السلام) أنموذجا في منهاج العدالة الإنسانية على مر العصور ، وعندما يتصفح المسيحي تاريخ علي ويقرأ انه وبعد أن حرّر البصرة من يد الخارجين على الخلافة الإسلامية وقبل أن يخرج «عليه السلام» من البصرة أقام خطيبا في أهلها وقال :- وقد أشار إلى قميصه وردائه :- « والله إنهما لمن غزل أهلي » ثم أشار «عليه السلام» إلى صرة في يده كانت فيها نفقة ،وقال :- « والله ما هي إلاّ من غلتي في المدينة ، وان خرجت عنكم بأكثر ممّا ترون، فانا عند الله من الخائنين «

الباحث والأديب أنطوان بارا يرى بأنّ إنسانية الإمام علي (عليه السلام) هي معجزة الأجيال على مر العصور والدهور[١٦] ، واعتبر الأستاذ (بارا) أن وصايا الإمام علي (عليه السلام) الخالدة لأبنائه ولعماله وولاته على البلدان والأمصار هي دلالة الكمال والتكامل في شخصية الإمام علي (عليه السلام) المتربعة على عرش الكمال الإنساني[١٧] .

كان جورج جرداق مصيباً وموفقاً عندما اختار لموسوعته القيمّة ذات الخمسة أجزاء بالشبع، أمير المؤمنين عليا (عليه السلام) عنوانا يليق بسيرة هذا الرجل الفاضل وهو (علي صوت العدالة الإنسانية) وهو يبّرر اختياره لهذا العنوان بقوله واصفا علياً (عليه السلام):

(هل سألت عن حاكم يحذّر نفسه أن يأكل خبزا فيشبع في مواطن يكثر فيها من لا عهد لهم بالشبع ،وأن يلبس ثوبا ناعما وفي أبناء الشعب من يرتدي خشن اللباس ، وأن يقتني درهما وفي الناس فقر وحاجة . هل عرفت من الخلق أميرا على زمانه ومكانه يطحن لنفسه فيأكل ما يطحن خبزا يابسا يكسره على ركبتيه ، ويرقّع خفّه بيديه ، ولا يكتنز من دنياه كثيرا أو قليلا على ما مر ، لأن همه ليس إلاّ أن يكون للمستضعف والمظلوم والفقير ينصفهم من المستغلين والمحتكرين ويمسك عليهم الحياة وكريم العيش ، فما يعنيه أن يشبع ويرتوي وينام هانئا وفي الأرض «من لا طمع له بالقرص» وفيها «بطون غرثى وأكباد حرى» قائلا ، ويا لشرف القول : «أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر ؟»

وسواء لدى الحقيقة والتاريخ أعرفت هذا العظيم أم لم

تعرفه، فالتاريخ والحقيقة يشهدان أنه الضمير العملاق الشهيد أبو الشهداء علي بن أبي طالب صوت العدالة الإنسانية وشخصية الشرق الخالدة) [١٨] .

ولذلك نجد الشاعر توفيق جرداق الشقيق الأكبر للكاتب جورج جرداق يعبّر عن الآمال التي يعلقّها الإنسان التوّاق للعدل إلى رمز الإنسانية علي بن أبي طالب (عليه السلام) ولا يجد توفيق سوى (علي) ملاذ لهمومه وبلسماً لجروحه وملجأ يلوذ بحنانه وعطفه ..

كلما مر بي عارض الخطب ألمَّ

وصماني من عنا الدهر ألم

رحت أشكو لعلي علتي

وعليَّ ملجأ من كل هَم [١٩]

ثم يبرّر توفيق جرداق الأسباب التي تدعوه لأن يلوذ بهذا الإنسان دون غيره إلاّ وهي انتصاف علي (عليه السلام) ومواجهته للظلم. ووقوفه الحازم بوجه الظالم ولأن العدل في رحاب علي (عليه السلام) وتحت رعاية أخلاقه وشجاعته وبلاغته وعلمه .

فهو للظالم رعدٌ قاصفٌ

وهو للمظلوم فينا معتصم

وهو للعدل حمى قد صانه

خلق فـــذ وسيف وقلم [٢٠]

ثم ينعى الشاعر (علياً) ويرثي شعوباً وأوطاناً يحكمها الطغاة والظالمون بالجور والتعسف ويعاني أهلها الفقر والجوع والظلم .

من لأوطان بها العسف طغى

ولأرض فوقها الفقر جثم

غير نهج عادل في حكمه

يرفع الحيف إذا الحيف حكم [٢١]

وهكذا يرى توفيق جرداق أن لا نهج ينقذ البلاد والعباد من الظلم والقهر والفقر سوى نهج وعدل وحكومة علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

٣- الحاكم العادل والقائد المحنّك

رغم أن فترة حكم الإمام علي لم تدم لأكثر من أربع سنوات كانت غاية في الاضطراب على صعيد الأوضاع السياسية المتصاعدة نتيجة قيام بعض الاتجاهات المناوئة لحكومة وخلافة الإمام علي (عليه السلام) بالخروج عن إجماع المسلمين على مبايعته ، إلاّ إن ما حفلت به تلك السنوات من أحكام وقوانين أرست وساهمت في بناء الدولة الإسلامية على كافة الأصعدة والمستويات .

ولقد ألهم الحكم العلوي وما تميزت به الحكومة الراشدة العادلة لأمير المؤمنين (عليه السلام) في استثارة المفكرين المسيحيين الذين عبّروا عن تقديرهم وتقديسهم لتلك الحكومة وقائدها العظيم مؤسس النهج الإنساني العادل في الحكم الإمام علي (عليه السلام). فهذا (يان يشار) الباحث والمفكر الفرنسي الكبير يعبّر عن ذلك الاحترام والتقدير والإعجاب بحكومة الإمام علي (عليه السلام) بأن يعدها النظام الأمثل ويدعو المسلمين إلى الاقتداء بسياساتها واتخاذها أنموذجا امثل للحكم ويقول أيضا : « والحق أن المسلمين سليمي النية ، يتخذون من علي نموذجا ، كما لو انه حتى في القرن الواحد والعشرين لا يزال أمثل صورة للنظام الإسلامي السياسي)[٢٢] .

ثم يتحدث ذلك المفكر الفرنسي المسيحي عن شوق القلوب التواقة للحرية والمساواة والى الحكومة الصالحة والقيادة العادلة المتمثلة بالإمام علي (عليه السلام) بقوله:

(نرى نحن أنّه كل يوم، يزداد حياة، وأننا بحاجة إليه دوماً، وأنّ القلوب التي تهتز للإنسانية والحرية والعدالة والنقاء...تتجه أكثر فأكثر إليه وإلى إمامته))

أمّا الشاعر عبد المسيح الانطاكي فأبى إلاّ في ملحمته العلوية ذات ال (٥٩٥٥) بيتا إلاّ أن يسلّط الضوء على حكومة الإمام علي (عليه السلام) ليبعث في الأرجاء معالم أيقونة الحكم العلوي عبر استعراضه حسن تدبير الإمام وسياسته في أصعب المواقف وأحرج المصاعب ويعبّر عن تلك المشاعر بقوله :

كان العلي لدى الأخطار ما دهمت
أدهى الصحابة في تلطيف داهيها
وفي المصاعب أدرى من يبددها
بحكمة ما تناهت في تعصيها
يرى بصائب رأي ما تجيء به الأ
يام من قبلما تدهى دواهيها
فكان يلقي صروف الدهر يدفعها
بحسن تدبيره عنه ويتقيها [٢٤]

وعندما يستعرض الانطاكي سياسة الإمام علي (عليه السلام) لا يسعه إلاّ أن يعبّر عن إعجابه بشدة أمير المؤمنين في الوقوف بوجه الانحراف والمنحرفين وخصوصاً المحسوبين على حكومته الرشيدة من عمال وولاة الأمصار بل أنذ موقف الإمام علي (عليه السلام) من أقرب الناس إليه وذلك عند سؤال أخيه عقيل بن أبي طالب له إقراضه من بيت المال فكان جواب الإمام الرفض القاطع وبين أسباب ذلك الرفض لأخيه في الحادثة المعروفة ، فهذه الموقف العلوي كان من المواقف التي هزت كيان الانطاكي وألهمته القول :

في الله ما كان مولانا الأمير ير
اعي ذا طماعية قد راح باغيها
فكان يشجب من جاز الشريعة من
عمالـه راقباً شتى مآتيـــــها
سيان من كان من أبناء عترته
او كان في العرب من أسمى قريشيها
حتى أخوه عقيل كان جابهه
لمّا أتـــاه بإطماع يوخيـــها [٢٥]

ثم يختتم الشاعر كلامه عن حكومة الإمام ودولته العادلة وسياسته الرشيدة ببيان أن تلك الحكومة كانت مصدر تشريعها دستور السماء (القرآن) ، ويبين الانطاكي أيضا إن تلك الحكومة كانت في زمن الملوك والسلاطين الذين استأثروا بخيرات البلاد والعباد واستعبدوا الناس فكان أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وحكومته منارة للعدل والسياسة الإلهية وحلما يراود المستضعفين في الأرض ويعبّر عن ذلك الاعتقاد بقوله :

ذا رأي حيدرة بل ذا عدالة شر
ع الله حيدرة قد راح يبديها
أيام كانت ملوك الأرض آلهة
وناسها ما تعالت عن مواشيها
فكان أول ما أعطى الشعوب حقو
قها وقيدّ تقييداً مواليها
فإنه نؤرخ شوراها نقول علي
المرتضى دون شك كان منشيها [٢٦]

٤- البلاغة والبيان

أمّا في هذا الباب والمضمار اللغوي والأدبي والبلاغي فلقد كان علي (عليه السلام) أميرا للبيان وللفصاحة والبلاغة ، ولعل آثار الإمام في هذا المضمار أكبر من أنْ تشخّص بعلم أو جانب ،فعلى صعيد اللغة والنحو فلعل الإشارة فقط إلى أن واضع علم النحو ومنقّط كلمات القرآن وحروف العربية هو سيد البلغاء والمتكلمين الإمام علي (عليه السلام) بعد أن أملى لتلميذه أبي الأسود الدؤلي مبادئ وأسس ذلك .

وأمّا على صعيد البلاغة فهو أميرها وسيدها الأول بلا منازع ولا زال نهجه الرائع (نهج البلاغة) صرحاً

أدبياً وبلاغياً لم يستطع بشر الإتيان بمثله ولذلك عدّ نهج البلاغة المدر الثاني للغة العربية وفصيح كلامها بعد كتاب الله القرآن الكريم.

ولعل تأثير هذا النهج لم يؤطر بحدود معينة وإنما تجاوز الحدود الدينية والقومية والجغرافية ويؤيد راجي أنور هيفا الكاتب المسيحي الكبير هذا الكلام ويصوغ ذلك بأن يبرز في بيان موقع هذا المنجز الأدبي البلاغي اللغوي العظيم بقوله :

(نهج البلاغة هو المرآة المعرفية واللغوية للقرآن الكريم الذي أعجز العلماء والبلغاء بفصاحته وبلاغته وبعلومه ومعارفه حتى إن الكثير من الأدباء والمفكرين المسيحيين رأوا فيه كتاباً سماوياً خالداً لا يمكن لأي يراع بشري أنْ يخطّه أو أنْ يخطّ أي كتاب آخر يدانيه علماً وبياناً وبلاغة)[٢٧] .

أمّا نصري سلهب فيرى بأن الإمام عليا (عليه السلام) هو منبع علوم اللغة والنحو والبلاغة بدلالة نهجه البلاغي ويقول عن ذلك (إن الخُطب والأقوال المجموعة في كتاب نهج البلاغة هي الدليل المادي على أن الإمام علياً هو الأب الروحي لعلوم اللغة العربية النحوية والبلاغية انطلاقاً من حقيقة أن الصنعة تدلّ على الصانع وآثار العلم تدلّ على المؤثر والعلم)[٢٨] .

وكذلك يطلّ علينا شاعر مسيحي أخر هو الأديب خليل فرحات في حديثه عن النهج بقصيدته (على دروب النهج) ليؤكد الخصوصية التي يتمتع بها كتاب نهج البلاغة والملازمة المعنوية التي أدركها هذا الشاعر المسيحي بين القرآن ونهج البلاغة ويعّبر عن تلك العلاقة بقوله :

وما النهجُ والقرانُ إلاّ تلازَمَا
وإن يكن القرآنُ أنأى عن الشعر
وما عَجَبٌ ؟ فالعارفون توافقوا
على أنه ظِلُّ الألوهةِ في القَدْرِ [٢٩]

ثم يكشف فرحات اللثام عن سر مكنون في صدره وأمن بصدقه إلاّ وهو الاعتقاد بأن الإنجيل أو الأناجيل بالأحرى بما احتوت من معان وآيات فإنها كلها كانت أسيرة نهج البلاغة وجزءا منه فيقول في ذلك الشأن :

وفي النهجِ أشياء الأناجيل جُملةً !
وليس يَحَارُ المرءُ في المُلهمِ السِّري
بيانك لم ينهَضْ لِكسفِ بيانِها
ولكنّكَ النَّقَّاش يَخلُدُ في الصخرِ
تَتَبَّعْتُهُ ، واللهِ حتى رأيتُني
مليكَ ملوك الفِكرِ والكَلِمِ البِكرِ [٣٠]

ثم يفصح عن اعتقاده في نهج البلاغة لأمير المؤمنين (عليه السلام) بأنه غاية ما يقال ونهاية البلاغة وأن كل الكتب الإنسانية لا تكاد تكون في مقابله إلاّ خدما في رحاب سيد القصر ويصوغ ذلك البيان شعرا بقوله :

فأنت بقصرِ القولِ وحدك ربُّهُ
وكلُّ ملوك القولِ من خدمِ القصرِ [٣١]

أمّا الشاعر السوري جاك صبري الشماس فلا يملك وهو يقف أمام نهج البلاغة وأمام أمير البلغاء إلاّ أن يرتوي من نبعه الصافي ليطفئ ظمأ روحه التواقة إلى عوالم البلاغة والحكم ويقول في ذلك :

هذه ينابيع البلاغة أينعت
منها بساتين البيان حسانا
الخالدات خلود نهجك أنجما
والساميات سمو فكرك شأنا
والباعثات من المعاني درة
عصماء تبقى للورى أزمانا [٣٢]

الإمام والوصي

عندما تطالع ما كتبه أدباء ومفكرو المسيحية عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بوصفه إماما ووصياً ووارثاً للنبوة لا يسعك إلاّ أنْ يتملكّك الإعجاب بهذه الأقلام المنصفة التي وقفت بإجلال وتعظيم وتقديس لمقام الإمام بشكل يكاد يفوق حتى ما كتبه شيعة علي ومحبوه.

وهذا نصري سلهب يوصف حياة أمير المؤمنين بأسفار الكتب المقدسة ويقطع بأن هذا السفر لو قدّر للناس قراءته واستيعابه لأصبحوا في نعمة اليقين والبصيرة الإلهية ، ويصف بعد ذلك عظمة علي (عليه السلام) بقوله :

(حياتك سفر قداسة، لو يقرؤه البشر ويعيشونه لاستحالت قلوبهم قطعاً من السماء)[٣٣]

ثم يبين أسباب هذه القداسة والعظمة المتجلية من ذوبان الإمام علي (عليه السلام) في الله تعالى وتجسّد عدالة السماء بالإمام بقوله:

(ذلك سر خلودك يا علي، لأنك حي بالله، والله حي فيك)[٣٤]

أمّا راجي أنور هيفا فيوجز رأي مفكري وأدباء المسيحية بمكانة الإمام علي (عليه السلام) بقوله :

(أنّ الكثير من أرباب الفكر والأدب من المسيحيين رأوا في الإمام علي (عليه السلام) صورة الشخصية الفريدة التي لا يمكن أن يأتي الزمان بمثيل لها من خلال تكامل صفاتها واكتمالها) [٣٥]

وعندما نبحر في سفينة مسيحي آخر من محبي الإمام علي (عليه السلام) وهو بولس سلامة الشاعر المبدع الكبير وصاحب (عيد الغدير) الفريدة بكونها أول ملحمة شعرية تتناول التاريخ الإسلامي منذ الجاهلية وحتى أخر دولة الأمويين ، فانه سطّر هذه الملحمة العلوية الغديرية بألف بيت وبوزن وقافية واحدة.

فهذا الأديب والشاعر الكبير يعلن في ملحمته انه متيّم بعلي (عليه السلام) وصي النبي وأخيه وصهره وفارس الميادين المغوار الكرار والزاهد ويتغنى به بقوله :

باسمِ زين العصور بعد نـبـيٍّ
نور الشرق كوكبا هاشميا
باسمِ ليث الحجاز صقر البوادي
خير من هز الورا زمهريا
خير من جلل الميادين غارا
وأنطوى زاهدا ومات أبيا
كان رب الكلام من بعدِ طـهَ
وأخاه وصـهرهُ والـوصيـا [٣٦]

ثم يكشف الشاعر المسيحي بولس سلامة سر هواه بعلي (عليه السلام) ألا وهي صفات الإمام وخصاله التي لم تجتمع إلا للأنبياء وهي البطولة والعدل والإلهام والرضا وسمو الأخلاق ، ثم يسأل سلامة ربه أنْ يعطيه ثواب ما سطّر من أسفار الولاء العلوي من مسيحي منصف عشق الإمام عليا (عليه السلام) وذاب فيه لأنّه كان خير الأنام بعد النبي ولأن مثل هذا الإمام لا أذن سمعت ولا عين رأت أو قرأت في أسفار البشرية والخلق ، ويصرّح بهذا قائلا :

أنا من يعشق البطولة والإلهام
والعدل والأخلاق والرضيا
فإذا لم يكن علي نبيـــــا
فلقد كان خلقه نبيا
سفر خير الأنام من بعد طه
ما رأى الكون مثله آدميـا [٣٧]

ثم يشهد سلامة السماء والأرض على هذا العشق الأبدي السرمدي ويعلن أن أوان الخشوع قد حلّ بذكر اسم الإمام علي (عليه السلام):

يا سماء اشهدي ويا ارض قري

واخشعي إنني ذكرت عليــا [٣٨]

ونختتم هذا الباب بشاعر مسيحي كبير هو الوزير جوزيف الهاشم الذي هام هو الآخر في حب علي وساح في خصال علي وذاب في إمامته فإذا به يفصح عن هذا المكنون بإبداع شعري متجدد في قصائد كثيرة ونقتطف منها هذه الأبيات من إحدى قصائده الجميلة والتي يبدأ فيها بذكر مزايا الإمام وبأنه حسام الدين وفارس الإسلام لأن السيف لا يقف مذهولا بين يديه فقط وإنّما تختلجه العواطف ويبعث به الفرح إلى أن يزغرد لأنّه واقع تحت قبضة الإمام علي (عليه السلام) :

هو الإمام (حسام الدين) ، فارسه

ما زغرد السيف إلاّ بين قبضته [٣٩]

ثم يعود ليبين نشأة هذا الإمام في أحضان النبوة إلى أن أشتدّ ساعده لتطلقه يد النبوة بعد ذلك إماماً وهو في ريعان الطفولة :

يدُ النبوة شدت عزم ساعدِهِ

وأطلقته إماماً من طفولته [٤٠]

ويستمر جوزيف الهاشم بالغوص ببحر فضائل علي (عليه السلام) وكان لا بد أن يقف على نهجه الشاخص نهج البلاغة ليعلن أن هذا النهج نصّب الإمام أميراً للبيان وباباً للعلوم :

سَّيد البيان ، (باب العلم) مشترعاً

والفقه منذ كان نهجا من بلاغته [٤١]

ثم يختم الهاشم أبياته بإعلان ولاية علي والإقرار بوصايته وخلافته ويدعو الآخرين إلى الاستبشار بذلك والابتهاج به :

هو العلي ، وصي الإرث ، فابتهجوا

ووزعوا البُشرَ ، واحكوا عن ولايته [٤٢]

الخاتمة

بعد إكمال هذا البحث الموجز في صورة الإمام علي (عليه السلام) في الشعر المسيحي والاستعراض لأهم الشعراء المسيحيين الذين أنشدوا في أمير المؤمنين علي (عليه السلام) فيمكننا التعرّف على أهم المحاور التي كانت مبعث الهام الشعراء المسيحيين في شخصية الإمام علي (عليه السلام) والتي جمعت عددا من الصفات التي تندر أنْ تجتمع وتكتمل في شخصية إنسانية إلاّ أنْ كانت من مقام الأنبياء والأوصياء .

ولذلك فان البطولة لم تكن هي المحور الأول والأخير في شخصية علي (عليه السلام) وسيرته بالنسبة للشعراء المسيحيين وإنّما اجتمعت مع البطولة الإنسانية والحكمة والعلم والبيان والمقام الإلهي السامي بالإضافة إلى الصفات الأخرى التي كانت جزءا من شخصية الإمام علي (عليه السلام) .

الخصّ ما يمتاز به الشعر والشعراء المسيحيون في هذا الجانب أنهّم تفننوا في اختيار المفردات التي تعبّر عن مشاعرهم الجياشة بالحب والانبهار بشخصية الإمام علي (عليه السلام) بالإضافة إلى استعراضهم لبعض أهم المحطات ليس في تاريخ الإمام فقط وإنما في تاريخ الإسلام كبيعة الغدير والخلافة وغزوات الرسول الأكرم (صلى الله عليه واله) وحكومة الإمام ... الخ .

هذا ما استطعنا على عجالة أن نستنبطه من هذا البحث الموجز حول صورة الإمام في الشعر المسيحي ونرجو أن نكون قد وفقّنا إلى توضيح جزء بسيط من تلك الصور الرائعة.

الهوامش

١- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر ، ٦٨
٢- موسوعة شعراء الغدير ، الوامق النصراني ، ج٣، ص٤
٣- لسان العرب ، ج٢،ص٤٩٢
٤- الرؤيا الشعرية المعاصرة ، ص١١٩
٥- أصول النقد الأدبي ، ص ٢٤٢
٦- النقد الأدبي، ج١، ص٨١
٧- نظرية النقد العربي ، ص١٠
٨- المصدر السابق ، ص ١٦٨
٩- نظرية النقد العربي ، ص٢٣
١٠- المصدر السابق ، ص١٢
١١- المصدر السابق ، ص٩
١٢- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر ، ص١٢٧
١٣- المصدر السابق ١٢٨
١٤- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر ، ص ١٢٩
١٥- موسوعة الموسم ، العدد ١٠٠، ص ١٨٦
١٦- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر ، ص٢١٢
١٧- المصدر السابق ،ص٢١٤
١٨- علي صوت العدالة الإنسانية ، ص ٤٦-٥٣
١٩- المصدر السابق ، ص٧٨٦
٢٠- المصدر السابق،١- المصدر السابق، ص ٧٨٧
٢٢- الإسلام الشيعي، ص٣٧
٢٣- المصدر السابق ، ص ٤٠
٢٤- موسوعة الموسم ، العدد ١٠٠، ص ١٩٠
٢٥- المصدر السابق ، ص١٩١
٢٦- موسوعة الموسم ، العدد ١٠٠، ص ١٩٣
٢٧- الإمام علي في الفكر المسيحي ، ص ٥٤٩
٢٨- المصدر السابق ، ص٥٥٨
٢٩- في محراب علي ، ص٣٣
٣٠- في محراب علي ، ص٣٣
٣١- المصدر السابق
٣٢- موسوعة الموسم ، العدد ١٠٠، ص ٢٦١
٣٣- في خطى علي ، ص١٧

٣٤- المصدر السابق ، ص ٣٠
٣٥- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر ، ص ١٧٤
٣٦- القصائد الخالدات ، ص ١٣٩
٣٧- المصدر السابق ، ص ١٤١
٣٨- المصدر السابق
٣٩- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر ، ص ١٧٤
٤٠- المصدر السابق
٤١- المصدر السابق ، ص ١٧٥
٤٢- المصدر السابق

المصادر والمراجع

١- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر ، راجي أنور هيفا، دار العلوم ، بيروت ،ط١

٢- موسوعة شعراء الغدير ، عبد الحسين الاميني ، الوامق النصراني وشعره ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ج٣ ،ط١

٣- علي صوت العدالة الانسانية ، جورج جرداق ، دار الاندلس ، بيروت ، ط١

٤- لسان العرب ، ابن منظور دار لسان العرب ، بيروت ، ط١

٥- الصورة الفنية ، س.داي لويس ، ترجمة احمد الجنابي ، مؤسسة الخليج للطباعة ، الكويت

٦- أصول النقد الادبي ، احمد الشايب ، مطبعة السعادة ، القاهرة

٧- نظرية النقد الادبي ، يوسف نور ، دار الامين ، القاهرة .

٨- النقد الادبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ، دار الثقافة والعودة ، بيروت

٩- البطولة في الشعر العربي ، شوقي ضيف، دار المعارف ، القاهرة

١٠- الاسلام الشيعي ، يان يشار ، ترجمة حافظ الجمالي ، دار عطية ، بيروت

١١- القصائد الخالدات ، محمد عباس الدراجي ، مكتبة الامير ، بغداد ،ط٢

الصحف والدوريات

١- موسوعة الموسم ، العدد ١٠٠ ، اكاديمية الكوفة ،هولندا